فثاروا وربما كانوا ينجحون فيما إليه قصدوامن ثورتهم هذه لو وجدوا قائداً يدبر أمرهم ويبعدهم عن الفوضى ولكنهم لم يظفروا به.

اجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنفير وانضمت إليهم الأبناء الشاكرية وفتحوا أبواب السجون وأخرجوا من فيها ثم أخرج أهل اليسار من أهل بغداد وسامرا أموالاً كثيرة من أموالهم فقووا من خف للنهوض إلى الثغور لحرب الروم وأقبلت إليهم العامة من نواحي الجبل وفارس وغيرهما لهذا القصد كل ذلك والخليفة لاه بما هو فيه عن ثغور المسلمين فلم يوجه لها عسكراً ولم تجد حركة العامة شيئاً.

١٣ ـ المعتز

هو أبو عبد اللّه المعتز المتوكل بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد اسمها قبيحة (ولد سنة ٢٣١) وكان أبوه المتوكل جعله ولي عهده بعد المنتصر فلم تتم له الولاية لأن المنتصر أرغمه على أن يخلع نفسه ولما ولي المستعين بعد المنتصر حبسه هو وأخاه المؤيد حتى كانت الفتنة بين قواد المستعين فأخرج المعتز وبويع وتم له الأمر بعد خلع المستعين في رابع محرم (سنة ٢٥٢) (٢٥ يناير سنة ٨٦٦) ولم يزل والياً إلى أن خلع لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ (١١ يوليه سنة ٨٦٩) فكانت مدة خلافته بعد خلع المستعين ثلاث سنوات وستة أشهر و٢٣ يوماً.

وزراء المعتز:

لم يكن للوزارة في هذا العهد كبير شأن لانحطاط أمرالخلافة نفسها وقد كان الوزراء كتاب أموال فمن أمكنه أن يقوم بحاجة كبار الأتراك ومقدميهم بقي في منصبه وإلا عزل وفعلت به الأفاعيل.

أول وزراء المعتز أبو الفضل جعفر بن محمود الإسكافي. لم يكن له علم ولا أدب ولكنه كان يستميل القلوب بالمواهب والعطايا وكانت وزارته على غير رغبة المعتز لأنه كان يكرهه وكان الأتراك فيه فريقين فثارت بسبب ذلك فتنة فعزل من أجل ذلك.

وتولى الوزارة بعده عيسى بن فرخانشاه ولم يمكث إلا قليلاً حتى عزل بسبب فتنة كالأولى فولي بعده أحمد بن إسرائيل الأنباري وهو كاتب حاذق ذكي وكان المعتز يميل إليه لأنه كان يتولى له أموره قبل أن يلي الخلافة فمكث وزيراً إلى (سنة ٢٥٥) ومما يدل على قدر ما صار إليه سلطان الخليفة ومبلغ الفساد في أحوال الدولة، الكيفية التي عزل بها أحمد بن إسرائيل عن الوزارة هو والكتاب الذين معه.

دخل صالح بن وصيف مقدم الأتراك على المعتز وقال له: يا أمير المؤمنين ليس للأتراك

عطاء ولا في بيت المال مال وقد ذهب ابن إسرائيل وأصحابه بأموال الدنيا فقال له أحمد بن إسرائيل: يا عاصي يا ابن العاصي ثم لم يزالا يتراجعان الكلام بحضرة الخليفة حتى سقط صالح مغشياً عليه من شدة الغيظ والحر فرش على وجهه الماء وبلغ ذلك أصحابه وهم على الباب فصاحوا صيحة واحدة واخترطوا سيوفهم ودخلوا على المعتز فلما رأى ذلك المعتز دخل وتركهم وأخذ صالح بن وصيف أحمد بن إسرائيل الوزير والحسن بن مخلد كاتب قبيحة أم المعتز وأبا نوح عيسى بن إبراهيم فقيدهم وطالبهم بالمال فقال المعتز لصالح قبل أن يحملهم: هب لي أحمد فإنه كاتبي وقد رباني فلم يفعل ذلك صالح وبعثت إليه أم المعتز في ابن إسرائيل تقول له: إما حملته إلى المعتز وإما ركبت إليك فيه. فلم يفد هذا ولا ذاك شيئاً. وهذا دليل على انحطاط عظيم في أمر الخلافة وزاد صالح الأمر شنعة فبعث إلى جعفر بن محمود الإسكافي الذي كره المعتز أن يعمل له وولاه الوزارة رغم أنفه.

وإسكاف الذي ينتمي إليها جعفر بن محمود قرية من نواحي النهروان بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي وهي إسكاف العليا وهناك إسكاف السفلى بالنهروان أيضاً.

العلويون في عهد المعتز:

في عهد المعتز مات علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا وهو الإمام العاشر من أئمة الشيعة الإمامية فتولى الشيعة بعده ابنه الحسن العسكري وهو الحادي عشر من أئمتهم وإنما لقب بالعسكري لإقامته بسامرا التي كانت تدعى إذ ذاك بالعسكر.

أما الزيدية فكانوا قد وجدت لهم دولة ببلاد طبرستان على يد الحسن بن زيد كما تقدم وقد اتهم جماعة من الطالبيين في بغداد والكوفة بالدعوة للحسن بن زيد ووجدت مع بعضهم كتب من الحسن فأمر المعتز بحملهم إليه بسامرا فحملوه إليه ولم يعرض المعتز لهم بمكروه وإنما توثق منهم.

حال الجيش والأتراك:

استخلف المعتز وأحوال الجند والأتراك على شر ما يكون فهم أصحاب السلطان والنفوذ وهم فيما بينهم مختلفون لأنه لا يد فوق تقف كلاً منهم عند حده ولا حيلة للخليفة إلا مراعاة جانبهم حيناً وإعمال الحيلة والدسائس حيناً وهكذا يفعل كل من سلب سلطانه ولا قدرة على استرداده.

في أول خلافة المعتز كتب بإسقاط اسم وصيف وبغا وهما أكبر قواد الأتراك لما كان من مساعدتهما المستعين وكان هذا الكتاب مرسلاً إلى محمد بن عبد الله بن طاهر أمير بغداد فبلغ

ذلك وصيفاً وبغا فجاءا إلى محمد وقالا: بلغنا أيها الأمير ما عزم عليه القوم من قتلنا والقوم قد غدروا وخالفوا ما فارقونا عليه والله لو أرادوا أن يقتلونا ما قدروا فحلف لهم محمد بالله أنه لم يعلم بشيء من ذلك فذهب الرجلان وتحرزا وتكلم لهما عند المعتز من أرضاه عنهما ثم اجتمع الأتراك عند المعتز وسألوه الأمر بإحضارهما وقالوا هما كبيرانا ورئيسانا فكتب إليهما بالرضا عنهما فذهبا من بغداد إلى سامرا فذهب لزيارتهما في منزلهما وزير المعتز أحمد بن إسرائيل وردهما المعتز إلى مراتبهما رغم أنفه بقاء على إلحاح الأتراك وردت إليهما ضياعهما.

كان من عناصر الجيش المهمة المغاربة وهم ممن اصطنع المعتصم كما اصطنع الأتراك. رأى المغاربة ما عليه الأتراك من النفوذ والعلو فساءهم ذلك فاجتمع بعضهم إلى بعض مع محمد بن راشد ونصر بن سعيد فيهم وجاءوا إلى الأتراك وهم بالجوسق من سامرا فغلبوهم عليه وأخرجوهم منه وقالوا لهم في كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً وكانوا قد وثبوا على عيسى بن فرخانشاه الذي كان وزيراً للمعتز قبل أحمد بن إسرائيل فتناولوه بالضرب وأخذوا دوابه.

ولما أخرجت المغاربة الأتراك من الجوسق وغلبوهم على بيت المال أخذوا خمسين دابة مما كان الأتراك يركبونها فاجتمع الأتراك ولموا شعثهم فتلاقوا هم والمغاربة وكان يعين المغاربة الغوغاء والشاكرية فضعفت الأتراك وانقادوا للمغاربة فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين على ألا يحدثوا شيئاً ويكون في كل موضع فيه رجل من قبل أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر فمكثوا على ذلك مدة ثم احتال الأتراك على محمد بن راشد ونصر بن سعيد اللذين اجتمع عليهما المغاربة حتى ظفروا بهما فقتلوهما والذي تولى ذلك بايكباك أحد كبار قواد الأتراك ولم يفعل المعتز في ذلك شيئاً وعاد النفوذ إلى الأتراك.

وفي (سنة ٢٥٣) شغب الأتراك والفراغنة والأشروسنة وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر فخرج إليهم بغا ووصيف وسيما الشرابي فكلمهم وصيف وقال لهم: ما تريدون؟ قالوا: أرزاقنا فقال: خذوا تراباً وهل عندنا مال وقال لهم بغا: نذهب فنستأمر أمير المؤمنين ومضى هو وسيما وبقي وصيف في أيديهم فوثب عليه بعضهم فضربه بالسيف ضربتين ووجأه آخر بسكين ثم أجهزوا عليه ونصبوا رأسه على محراك تنور.

ولما علم بذلك المعتز لم يكن له من العمل إلا أن جعل ما كان إلى وصيف من الأمور إلى بغا والشرابي. خاف بغا من أن يكون له من هؤلاء يوم كيوم وصيف فصار يحض المعتز على المسير إلى بغداد والمعتز يأبى عليه ذلك لخوفه أن يجري عليه ما جرى على سلفه. وكان بايكباك كبير الأتراك ومقدمهم بعد بغا منحرفاً عن بغا وكانا متهاجرين وكان المعتز مع بايكباك يريد

التخلص من بغا فجمع بايكباك جموعه وساعده المعتز حتى تمكن من بغا فقتله ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد وثبت المغاربة على جثته فأحرقوها بالنار وتتبع عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر بنيه ببغداد وكانوا صاروا إليها هرباً فحبس من ولده وأصحابه نحو (٢٥) شخصاً وصارت الكلمة العليا في الأتراك وفي الدولة لصالح بن وصيف وبايكباك.

كانت بغداد بعيدة عن الاضطرابات لأمرين: **الأول**: بعد هؤلاء الغلف القلوب عنها، **والثاني**: وجود محمد بن عبد اللّه بن طاهر بها وهو رجل ذو عزم وأيد زيادة على ماله في نفس القوم من الهيبة ومع ذلك كله فقد مسها طائف من شيطان الاضطراب في (سنة ٢٥٢) وذلك أن المعتز كتب إلى محمد بن طاهر يأمره أن يبيع غلال بعض الضياع التي منها أرزاق جند بغداد وكتب إلى والي البريد ببغداد يأمره أن يقرأ كتابه على من بها من القواد ففعل ذلك دون أن يعلم الأمير ابن طاهر، فلما قُرأ الكتاب على القواد جاءوا إلى ابن طاهر فخبروه الخبر فأحضر والي البريد وقال له: ما حملك على هذا بغير علمي وتهدده على ذلك ثم اجتمعت الجنود البغدادية إلى باب ابن طاهر تطلب أرزاقها فأخبرهم أن كتاب الخليفة ورد عليه جواب كتاب له كان كتبه بمسألة أرزاق بغداد. إن كنت فرضت الفروض لنفسك فأعطهم أرزاقهم وإن كنت فرضت لنا فلا حاجة لنا فيهم ـ أعطاهم ابن طاهر ما سكتهم به وقتاً ثم اجتمعوا في (١١ رمضان سنة ٢٥٢) ومعهم الأعلام والطبول وضربوا المضارب والخيم على باب حرب والشماسية وغيرهما وبنوا بيوتاً من بواري القصب وهكذا استعدوا للشغب على ابن طاهر كما يشغب أتراك سامرا على المعتز فجمع ابن طاهر الجند القادمين معه من خراسان وأعطاهم لشهرين وأعطى جند بغداد القدماء الفارس منهم دينارين والراجل ديناراً وشحن داره بالرجال.

اجتمع أهل الشغب وعليهم رجل يقال له عبدان بن الموفق وهو رجل قد اعتاد هذه الثورات وهو الذي كان يحض أهل الشغب على الطلب بأرزاقهم وفائتهم وضمن لهم أن يكون رأساً يدبرهم وأن يعينهم بماله حتى ينالوا ما يطلبون. عزموا بعد اجتماعهم أن يحضروا إلى الجامع فيمنعوا الخطيب من الدعاء للمعتز فذهبوا إلى الإمام وحظروا عليه ذلك فتعلل بالمرض ولم يذهب إلى الجامع.

وجه إليهم ابن طاهر قواده في جماعة من الفرسان فكانت بين الفريقين حروب ووقائع غلب فيها المشغبون قواد ابن طاهر ثم فسد نظام جماعة المشغبين ووشى بعضهم بسائرهم فقبض على رؤوسهم وعوقبوا أشد العقوبات وصلب رئيسهم عبدان بن الموفق وبذلك انتهى هذا الاضطراب وعادت أحوال بغداد إلى ما كانت من الأمن.

وفي (١٤ ذي القعدة سنة ٢٥٣) توفي الأمير محمد بن عبد اللّه بن طاهر أمير بغداد

واستخلف على إمارته أخاه عبيد اللّه بن عبد اللّه بن طاهر وهذه نسخة وصيته:

«أما بعد فقد استخلفت عبيد اللّه بن عبد اللّه مولى أمير المؤمنين أخي الموثوق باقتفائه أثري وأخذه بسد ما أنا بسبيله من سلطان أمير المؤمنين إلى أن يأتيه من أمره ما يعمل بحسبه فاعلم ذلك واتمر فيما تتولاه بما يرد به كتب عبيد اللّه وأمره إن شاء اللّه وكتب يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من ذي القعدة (سنة ٢٥٣) وقد أقره المعتز على هذه الولاية وعاش عبيد اللّه إلى (سنة ٣٠٠) وهي سنة وفاته».

خاتمة المستعين سلف المعتز:

قدمنا أن المعتز كتب للمستعين شروطاً عند خلعه منها تأمينه على حياته وقد أكدوا في هذا الكتاب تأكيداً شديداً وارتضى أن يقيم بالبصرة فقيل له إن البصرة وبية فكيف اخترت أن تنزلها فقال المستعين: هي أوبأ أو ترك الخلافة؟ فأشخص المستعين مع محمد بن مظفر بن سيسل وابن أبي حفصة إلى واسط لا إلى البصرة في نحو (٤٠٠) من الفرسان وقبل أن تنتهي السنة بدا للمعتز فعزم على قتل المستعين ولم يبال بكتاب الأمان فأرسل إلى ابن طاهر يأمره أن يكتب إلى عامل البصرة أن يسلم المستعين لمن ندبه المعتز لاستلامه وهو أحمد بن طولون التركي فأخرج المستعين من واسط لست بقيت من شهر رمضان فوافى به القاطول لثلاث خلون من شوال فتسلمه منه سعيد بن صالح وكان في ذلك ختام حياة المستعين وكيفية قتله مبهمة مختلف فيها كثيراً وأتي المعتز فيما قيل برأسه وهو يلعب الشطرنج فقيل: هذا رأس المخلوع فقال: ضعوه هنالك ثم فرغ من لعبه ودعا به فنظر إليه ثم أمر بدفنه وأجاز سعيد بن صالح بخمسين ألف درهم وولى معونة البصرة.

وكما لم يأبه المعتز بكتابة أمان المستعين وقتله كذلك لم يأبه لعهد أخيه إبراهيم المؤيد ولا لسابقة أخيه أبي أحمد بن المتوكل وهو الذي قاد الجيش إلى بغداد وحصرها حتى أسقط المستعين من عرش الخلافة فإنه خلع الأول من ولاية العهد وحبسه ثم أماته وحبس الثاني وضيق عليه وسبب ذلك أن عامل أرمينية العلاء بن أحمد بعث إلى إبراهيم المؤيد بخمسة آلاف دينار ليصلح بها أمره فبعث ابن فرخانشاه الوزير إليه فأخذها فأغرى المؤيد الأتراك بابن فرخانشاه وخالفهم المغاربة وكانت فتنة فبعث المعتز إلى أخويه المؤيد وأبي أحمد فحبسهما في الجوسق وقيد المؤيد وصيره في حجرة ضيقة ثم خلعه عن ولاية العهد يوم الجمعة (٧ رجب ٢٥٢).

وبعد هذا الحبس والتضييق والخلع بلغ المعتز أن الأتراك يريدون إخراجه من سجنه فأرسل إلى موسى بن بغا فسأله فأنكر وقال: إنما أرادوا أن يخرجوا أبا أحمد بن المتوكل لأنسهم به يوم كان في الحرب التي كانت وأما المؤيد فلا. فأغرى ذلك المعتز بأخيه فعمل على موته بدون أثر ظاهر وحول أبو أحمد إلى الحجرة التي كان فيها المؤيد ثم نفاه (سنة ٢٤٥) إلى واسط ثم إلى

البصرة ثم رد إلى بغداد وأنزل إلى الجانب الشرقي في قصر دينار بن عبد اللّه.

خلع المعتز:

لما أخذ صالح بن وصيف الكتاب على الشكل الذي أوضحناه قبلاً في تاريخ الوزراء لم يجد عندهم من المال ما يسد مطامعه ومطامع الجنود الذين معه فذهبت الجنود إلى المعتز وقالوا له: أعطنا أرزاقنا حتى نقتل لك صالح بن وصيف فأرسل المعتز إلى أمه ذات الثروة الطائلة يسألها أن تعطيه مالاً ليعطيهم فأبت أن تعطيه شيئاً وأنكرت أن يكون عندها شيء ولما وجد الأتراك أن المعتز وأمه قد امتنعا أن يسمحا لهم بشيء وبيت المال خال اتحدت كلمة الأتراك والفراغنة والمغاربة على خلع المعتز فساروا إليه لثلاث بقين من رجب فلم يرعه إلا صياح القوم وإذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد بن بغا قد دخلوا عليه في السلاح فجلسوا على باب المنزل الذي ينزله المعتز. ثم بعثوا إليه اخرج إلينا فبعث إليهم إني أخذت الدواء أمس وقد أجفلني اثنتي عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف فإن كان أمراً لا بد منه فليدخل إلي بعضكم فليعلمني فدخل إليه القوم فجروا برجله إلى باب الحجرة وتناولوه كما قيل ضرباً بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق في مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه في الشمس في الدار في وقت شديد الحر فصار يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذي قد أقيم فيه ثم بعثوا إلى قاضي القضاة فحضر وأمر المعتز أن يمضي على كتاب خلع كتب له فأمضى وشهد عليه الحاضرون. ويقال إنه بعد الخلع دفع إلى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البحر فمنعوه حتى مات وهكذا انتهت حياة هذا الخليفة البائس الذي سعى كثيراً للحصول على هذه الخلافة وركب في سبيل الخلاص ممن توهمهم مزاحمين له ما لا يجوز من خليفة ولا من سوقة فقتل المستعين وخلع أخاه ثم قتله ونفى أخاه الثاني كل ذلك لتهيأ له الخلافة فلم ينل ما أراد بسبب الفساد المستحكم في الدولة وقال بعض شعراء العصر في ذلك:

عين لا تبخلي بسفح الدموع ... واندبي خير فاجع مفجوع
خانه الناصح الشفيق ونالته ... ـه أكف الردى بحتف سريع
بكر الترك ناقمين عليه ... خلعته أفديه من مخلوع
قتلوه ظلماً وجوراً فألفو ... ه كريم الأخلاق غير جزوع
كان يغشى بحسنه بهجة البد ... ر فتلقاه مظهراً للخضوع
وترى الشمس تستكين فلا تشـ ... ـرق إما رأته وقت الطلوع
لم يهابوا جيشاً ولا رهبوا السـ ... ـيف فلهفي على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكي الأمر والعا ... لم ما بين سامع ومطيع

وتـرى اللّـه فيهـم مـالـك الأمـ ـــر سيجـزيهـم بقتـل ذريـع

وقال آخر في قصيدة:

أصبحت مقلتي تسح الدموعا إذ رأت سيد الأنام خليعا
لهف نفسي عليه ما كان أملا ه وأسراه تابعاً لتبوعا
ألزموه ذنباً على غير حرم فثوى فيهم قتيلاً صريعا
وبنو عمه وعم أبيه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصح ملك ولا يغـ ـــزى عدو ولا يكون جميعا

وكان المعتز أول خليفة أظهر الركوب بحلية الذهب وكان من سلف قبله من خلفاء بني العباس وكذلك جماعة من بني أمية يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة والمناطق واتخاذ السيوف والسروج واللجم فلما ركب المعتز بحلية الذهب اتبعه الناس في فعل ذلك.

١٤ ـ المهتدي

هو محمد المهتدي باللّه بن هارون الواثق بن المعتصم بن الرشيد وأمه أم ولد رومية يقال لها قرب، (ولد سنة ٢١٨) وبويع له بالخلافة بعد أن خلع المعتز نفسه لثلاث بقين من رجب (سنة ٢٥٥) (١١ يوليه سنة ٨٦٩) ولم يزل خليفة إلى أن خلع في (١٤ رجب سنة ٢٥٦) (١٧ يونية سنة ٨٧٠) فكانت مدته ١١ شهراً وأياماً.

كيف انتخب:

لما عزم الأتراك على خلع المعتز أرسلوا إلى بغداد فأحضروا محمداً هذا وقد كان المعتز نفاه إليها واعتقله فيها فأتي به في يوم وليلة إلى سامرا فتلقاه الموالي في الطريق ودخل إلى الجوسق فعرضوا عليه الخلافة فأبى أن يقبلها حتى يرى المعتز ويسمع كلامه فأتي بالمعتز وعليه قميص مدنس وعلى رأسه منديل فلما رآه محمد وثب إليه فعانقه وجلسا جميعاً على السرير فقال له محمد: يا أخي ما هذا الأمر؟ قال المعتز: أمر لا أطيقه ولا أقوم به ولا أصلح له، فأراد محمد أن يتوسط أمره ويصلح الحال بينه وبين الأتراك فقال المعتز: لا حاجة لي فيها ولا يرضوا بي لها فقال محمد: فأنا في حل من بيعتك قال: أنت في حل فلما جعله في حل من بيعته حول وجهه عنه فأقيم عن حضرته ورده إلى محبسه وكان من أمره ما قدمنا.

وزراء المهتدي:

أبقى المهتدي محمود بن جعفر الإسكافي على وزارته مدة قليلة ثم عزله واستوزر من بعده سليمان بن وهب بن سعيد. وهو من بيت قديم في الكتابة منذ عهد معاوية ابن أبي سفيان وكان